**مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد ٩، العدد ٣٥ (صيف ١٩٩٨)، ص ١٨٥

## قراءات

# الهوية الفلسطينية:
# بناء الوعي الوطني الحديث
# Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness

**Rashid Khalidi**

N.Y.: Columbia University Press, 1997. 309 pages

تواصل المناظرة الأكاديمية بشأن مفهوم الوطنية ازدهارها. ومع أن هذه الظاهرة قد تبدو مناقضة للشعبية والهيمنة اللتين تتمتع بهما نظرية العولمة التي تبلورت مؤخراً، فإنها مواصل حتمية للمناقشة الدائرة بشأن طبيعة الدولة الحديثة وأصولها.

وعلى الرغم من أن هناك مدرسة فكرية أقدم لا تزال متمسكة بفكرة أن القومية، مهما بدت حديثة في ظاهرها، هي حصيلة إحساس جماعي حقيقي بالهوية العرقية الضاربة في الماضي، فإن الميدان أصبح يخضع، بصورة متزايدة، لهيمنة أولئك الذين يعتقدون أن الأمم، بما هي وليدة تحولات اجتماعية واقتصادية حديثة، هي موضع "تخيُّل" أو "اختراع"، يبني إحساساً بالهوية من دون أن يكون موجوداً من قبل.

ويقدم بينيدكت أندرسون إضافة مهمة تتصل بالثقافة المطبوعة. فهو يرى أن دور "الصحيفة كنتاج ثقافي" متصل بتوسيع الإنتاج الصناعي وبالرأسمالية، يجعل من الممكن للمجموعة القومية المتخيَّلة أن تتطور. وهكذا، فإن الصحافة "تمكِّن أعداداً متزايدة من الناس من أن يفكروا في أنفسهم، ومن أن ينتموا إلى آخرين بطرق جديدة كلياً." إن فكرة القومية نفسها، بما أنها مشارَكة في الروابط حاضراً وماضياً (استناداً إلى جذور تاريخية مفترضة)، تتمتع بانتشار واسع من خلال صحافة شعبية متنامية ومتطورة.

وقد اهتم الكثيرون من الباحثين في تاريخ غرب آسيا وشمال إفريقيا بأصول القومية العربية وعلاقتها بالعثمانية قبل الحرب العالمية الأولى، التي أدت هي نفسها إلى تفكك الإمبراطورية العثمانية، ونشوء تركيا الحديثة، وظهور نظام الانتداب في

سورية الطبيعية، ثم إلى تقسيمها لاحقاً. وكان الوعي الوطني النتيجة المباشرة لـ"بناء الدول تحت الانتداب" الناجم عن التقسيم القسري المفروض من بريطانيا وفرنسان تحت مظلة عصبة الأمم، فضلاً عن الصراع الراهن بين الهويات الوطنية والإقليمية. وهذا يطرح مسألة الهويات المزدوجة، ووفق ما وضعها شارل سميث في إطار ما إذا كانت "العلاقة الثقافية/ اللغوية مماثلة، أو ربما مختلفة عن الهوية القومية." وكذلك ما إذا كان الوعي السياسي للعرب كسوريين وعراقيين، وأردنيين أو فلسطينيين في مقابل وعيهم الثقافي كعرب، قد حلّ في إطار الدول الإقليمية، وما ينبئنا به ذلك عن القومية بصورة عامة، آخذين في الاعتبار أن من المهم التمييز بين فكرة الأمة وفكرة الدولة، إذ إن الدولة هي حصيلة تطورات تاريخية ومؤسساتية يمكن، أو لا يمكن، ربطها بشعب يعتبر نفسه أمّة.

وفي حالة سورية الجنوبية، أو فلسطين، كما أصبحت تسمى بعد أن رسمت السلطات البريطانية حدودها الطبيعية والسياسية، بفصلها بادىء الأمر عن سورية، ثم بفصل المناطق الواقعة شرقي نهر الأردن وإقامة إدارة مستقلة عليها خاضعة لسلطة الأمير عبدالله، أصبحت قضيتا الهوية والوعي الوطني متداخلتين مع الكفاح ضد بنود الانتداب نفسه. واستناداً إلى هذه المعطيات، أخذت سلطات الانتداب على عاتقها تهيئة الظروف لإقامة وطن قومي يهودي، حيث لا تبقى أية صفة للمواطنين الأصليين سوى أنهم "سكان غير يهود" في البلد.

وكان تشكيل الدولة في الحالة الفلسطينية يتعلق، في المقام الأول، بالمهاجرين اليهود الوافدين إلى البلد، بهدف محدد هو إقامة دولة يهودية فيه. وخاض "السكان غير اليهود" معركة دفاعية على جبهتين، ضد البريطانيين والحركة الصهيونية معاً، بالتزامن مع انهماكهم في عملية تحويل الهوية. فبعد أن كانوا خاضعين للعثمانيين طوال مئات الأعوام، أصبحوا اليوم فلسطينيين بصورة رسمية. وقد تم التعبير ماضياً وحاضراً عن مضمون هويتهم بمفاهيم تقليدية ودينية إلى حد بعيد. وانتهى نظام الانتداب بهزيمتهم وطردهم الفعلي، وبدمار مؤسساتهم الاجتماعية التي كانت أقيمت خلال ثلاثين عاماً من الحكم البريطاني. وقد تضافر التشتت والمنفى بعد سنة ١٩٤٨، والوضع الجديد للفلسطينيين الذين أصبحوا "لاجئين عرباً" ضد قيام هوية وطنية مميزة لهم، حتى استعادوا قدرتهم على إعادة تنظيم أنفسهم، والظهور فاعلين مستقلين على المسرح السياسي. وهذا ما استطاعوا أن يفعلوه عقب سنة ١٩٦٧. فوضعهم كلاجئين، وموقف الدول العربية تجاههم كمرتهنين وقاصرين في الوقت نفسه،

والنظرة السائدة في المجتمع الدولي إليهم، تواطأت كلها كي تمعهم من "حرية السرد"، كما قال إدوارد سعيد بكلمات بليغة.

إن كتاب رشيد الخالدي هو محاولة لتوظيف الدراسات المنشورة والمؤلفات السجالية بهدف تأكيد أن الهوية الفلسطينية ليست قليلة الأهمية كما أظهرها المشككون، وتقديم سرد تاريخي وطني فلسطيني يستند إلى مصادر عربية. وبينما لا يزعم الكتاب أن يكون إعادة تفسير لتاريخ فلسطين، فإن المؤلف يسند غلى نفسه مهمة استكشاف التفاعل بين الروايات المتعددة التي تشكل تاريخ فلسطين، كي يلقي الضوء على جوانب من هوية الفلسطينيين. وهو يسترشد بأندرسون في تزظيف الصحافة العربية الفلسطينية المحلية ليثبت أن الهوية الفلسطينية ترسخت جيداً، مع نهاية العقد الأول من الانتداب، بين النخبة المثقفة على الأقل، بعكس المؤرخين الصهيونيين الأساسيين، الذين يميلون إلى الإصرار على أن الهوية الوطنية الفلسطينية ظاهرة ذات منشأ حديث نسبياً، وأنها ظهرت كردة فعل محددة على الصهيونية. وهي بهذا المعنى تقارب أن تكون تأريخاً في خدمة عملية بناء الأمة والهوية الجماعية. إن عالم الاجتماع الإسرائيلي النقدي، باروخ كيمرلنغ، ينتقد التأريخ الصهيوني لاختراعه وإحيائه أساطير يهودية محددة بهدف التشديد على الجذور القديمة للشعب اليهودي في فلسطين. ويمضي قائلاً إن هذه الجهود شكّلت تحدياً للفلسطينيين كي يخترعوا ويستحدثوا أساطير مضادة. ويحاول الخالدي في كتابه أن يفعل المستحيل لإنجاز أمرين في وقت واحد: الحفاظ على التزامه الوطني، وفي الوقت نفسه التزام المعايير المهنية للبحث التاريخي.

إن الهم الأساسي لدى الخالدي هو أن يدحض الادعاءات أن الهوية الفلسطينية ظهرت، أساساً ردّاً على الصهيونية. فمع أنه يعترف بأهمية الصهيونية في تشكيل الهوية الفلسطينية – باعتبارها "الآخر" الأساسي الذي واجهه الفلسطينيون معظم هذا القرن – فهو يحاول أن يثبت أن عناصر انتماء الفلسطينيين إلى فلسطين تسبق مواجهتهم للصهيونية. كما يبين أن الحجة بأن الصهيونية كانت العامل الأساسي في ظهور الهوية الوطنية الفلسطينية تتجاهل حقيقة أساسية هي أن ثمة عملية عامة كانت تتجلى للعيان في منطقة الشرق الأوسط آنذاك، تتعلق بالتماهي المتزايد مع الدول الجديدة الناشئة عن التقسيمات التي تلت الحرب العالمية الأولى. وفي جميع الحالات، فإن ذلك قام على أساس تطور ولاءات موجودة سابقاً، ونشوء ولاءات جديدة. وكما هي الحال مع الفلسطينيين تماماً، فإنه يمكن في جميع الحالات إثبات أن هذه

الهويات الجديدة طارئة، وحدسية، ومعتمدة على ظروف معينة، أكثر من كونها جوهرية أو أصلية. وكجزء من هذه العملية، فإن لبنان وسورية والعراق والأردن استطاعت جميعاً أن تطور هويات وطنية قائمة على أساس الدولة – الأمة، خلال تلك الفترة، "من دون الفائدة المشكوك فيها من التحدي الصهيوني."

يحذّر الخالدي من النزعة العامة، في معظم الكتابات الفلسطينية الملتزمة، إلى رؤية هوية فلسطينية جوهرية تعود إلى الماضي البعيد. وهو يحاجج بأن تعريفات الفلسطينيين لهويتهم الخاصة تغيرت مع مرور الزمن، وأن من الصعب القول متى ظهر إحساس مميّز بتلك الهوية. فهناك قليل من الشك في أنه ظهر بصورة متفاوتة وطرق متنوعة بين مجموعات مختلفة وفي مناطق مختلفة، وأنه تعايش دائماً مع أنماط أُخرى من الانتماء، كالدين والعائلة الموسّعة. ويعرض الخالدي المقولة المثيرة للاهتمام أن في خضم الأحداث الكبرى تمرّ الشعوب بتغيرات وتحولات سريعة في النظر إلى الذات وإلى الآخرين، وفي النظر إلى التاريخ والزمان والمكان. وهذه التغيرات في أوضاع التوتر السياسي الأقصى، يمكن اعتبارها باعثاً على الشعور بالهوية. وهكذا، فإنه بتأثير التحديات الكبرى الشريعة والمتوالية طوال الفترة من بداية الحرب العالمية الأولى إلى زمن الانتداب البريطاني في فلسطين، خلال عام ١٩٢٢/١٩٢٣، خضع الشعور بالانتماء السياسي والوطني، لدى معظم المثقفين سياسياً ولدى الفلسطينيين المدنيين، لسلسلة من التحولات الكبرى. وكانت النتيجة النهائية تماهياً وثيقاً ومتزايداً مع فلسطين، إذ إن السكان العرب في البلد بدأوا "يتخيلون"، بحسب تعبير بينيدكت أندرسون، أنفسهم جزءاً من مجتمع سياسي واحد له حدود واضحة وحقوق في السيادة. إلاّ إن هذا التماهي لم يكن حصرياً – لأن العروبة والدين والولاءات المحلية بقيت في غاية الأهمية، وظلّت تتيح للعرب في فلسطين أن يروا أنفسهم جزءاً من مجتمعات أُخر أكبر وأصغر في آن واحد. وهذه الهوية لم تشمل بالتأكيد كل القطاعات أو الطبقات بين السكان، لكنها شكّلت نوعاً من الهوية جديداً وقوياً فعلاً، لم يكن، ببساطة، موجوداً قبل جيل أو جيلين، وظل جديداً ومحدود الانتشار قبل الحرب العالمية الأولى.

كانت الحجّة الأساسية في عرض الخالدي هي وجود "مستوى عالٍ من وعي الكيان الفلسطيني." فهو يقتبس براهين من مؤلفات ألكسندر شولش كي يبرز أهمية الموقع الرفيع لسنجق القدس، ومساهمته في ظهور مفهوم فلسطين كهوية إدارية. كما أنه يستشهد بأقوال المؤرخ الإسرائيلي يهوشواع بورات، للتوصل إلى أن مفهوم

"فلسطين" كان واسع الانتشار بين الجمهور العربي المثقف، وهو يشير إلى فلسطين كلها أو إلى سنجق القدس وحده. في الواقع، يناقش شولش في كتابه "التحولات في فلسطين: ١٨٥٦ – ١٨٨٢" (Palestine in Transformation 1856-1882)، أن منطقة الانتداب في فلسطين لم تكن بدعة استعمارية مصطنعة، وأنه عندما رُسمت حدود فلسطين لم تكن حدوداً اعتباطية ومصطنعة أنتجتها القوة الاستعمارية. بل إن فلسطين كانت اتخذت ببطء شكلها خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في وعي سكانها وحكومتها المركزية. لكنه يتابع قائلاً إن هذا ينطبق في الحقيقة على الأوروبيين والصهيونيين، الذين انطلقوا في تفكيرهم من التاريخ التوراتي، لدى محاولتهم تقرير حدود الأرض المقدسة، وإن هذا "ربما بدا نغمة مألوفة للمسيحيين العرب في البلد." إلا إنه بالنسبة إلى الأكثرية المسلمة والإدارة العثمانية، "لم تعنِ الحدود التوراتية سوى القليل جداً." وعلى الرغم من ذلك فإن شولش يعتقد أنه منذ سنة ١٩٣٠ على الأقل، كانت صورة تماسك المنطقة ملحوظة، واتخذت خلال السبعينات خطوطاً أكثر وضوحاً. ويقول لنا إن الرؤية الأوروبية لفلسطين كأرض مقدسة كانت "قوة لها أثرها".

ويركِّز كتاب الخالدي، بصورة أساسية، على موضوع الهوية. فهو يحاول الإجابة عن سؤال بشأن الوقت الذي بدأت فيه نسبة بارزة من السكان العرب في فلسطين تعتبر نفسها فلسطينية. وهو لا يجد أية مشكلة في قبول أن السكان العرب في البلد امتلكوا عدة مفاهيم متداخلة للهوية. وهكذا فإنهم تماهوا مع دينهم، ومع الإمبراطورية العثمانية، ومع العروبة، ومع وطنهم فلسطين، ومع مدينتهم أو منطقتهم، ومع عائلتهم، من دون أي شعور بتناقض الولاءات. وهو يؤكد أنه على الرغم من كون هذه التعددية غير تناقضية بالنسبة إلى الفلسطينيين أنفسهم، فقد أساء الآخرون فهمها.

ويحاول الخالدي أن يضع هذه الظاهرة ضمن إطار أوسع، يسميه العملية العامة الجارية في الشرق الأوسط آنذاك. فسكان الدولة القائمة حديثاً تماهوا مع التشكيلات السياسية الجديدة التي أوجدتها بريطانيا وفرنسا في المنطقة. وهذا في اعتقاده يستند، نوعاً ما، إلى تطوّر ولاءات سابقة الوجود. وقد استطاع العرب الآخرون، كالسوريين والأردنيين والعراقيين واللبنانيين، أن يقيموا دول أوطانهم خلال الفترة نفسها، بمعزل عن التحدي الصهيوني كحافز لهم. وفي المثال الفلسطيني، فإن حقيقة كون المنطقة أقل حظاً فيما يتعلق بالتطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، قياساً

بالمناطق المدينية في سورية ولبنان خلال تلك الفترة، تفسر الضعف النسبي لتطور مفهوم الهوية هناك. كما أن غياب الدولة القوية، في الوقت نفسه، الدولة التي يديرها الفلسطينيون، حرمهم الوصول إلى سلطة الدولة الرسمية، وأثّر سلباً في تطور الهوية الفلسطينية.

إلا إنه على الرغم من التفاوت في تطور الهوية كما ظهر بطرق متنوعة بين مجموعات مختلفة وفي مناطق متنوعة، وعلى الرغم من أن ذلك التفاوت ظل قائماً إلى جانب أنماط أُخرى من التطور، فإن الخالدي يرى أن الكثيرين من سكان فلسطين تخيلوا أنفسهم مجتمعاً سياسياً ذا حدود واضحة وحقوق في السيادة منذ مطلع القرن العشرين. وفي تتبُّعه أعمال شخصين بارزين من سكان القدس خلال الأعوام الأخيرة من الحكم العثماني، يرى الخالدي أن عثمانية مثل هؤلاء الأشخاص من نخبة الولايات العربية في الإمبراطورية، الذين أمضوا حياتهم العملية في خدمة الدولة، طبيعية ومتأصلة. فقد بقي هؤلاء كمجموعة على ولائهم للإمبراطورية، وارتبطوا بها كإطار سياسي، حتى بداية الحرب على الأقل، على الرغم من خلافاتهم مع السلطان أو مع حكومة محددة. وكان هؤلاء الأفراد أنفسهم مركزيين في إرساء الأسس الفكرية للعروبة والوطنية الفلسطينية، وسواها من الأيديولوجيات التي تبلورت تماماً بعد سنة ١٩١٨. وهكذا، فإن الفلسطينيين كانوا قد طوّروا انتماءهم الوثيق إلى بلدهم قبل وصول الصهيونية السياسية الحديثة. لكن الخالدي يلطّف من هذا الرأي بإضافته أن هذا الانتماء "تم التعبير عنه بمصطلحات ما قبل قومية."

لا يقدّم الخالدي أي تنازل إلى الذين اعتبروا فلسطين مجرد سورية الجنوبية، وأن هوية سكانها متجذّرة بثبات في هوية قومية سورية أوسع. ويناقش أنه كان هناك القليل قبل الحرب مما يشير إلى ارتباط قوي بسورية كمحور أساسي للهوية، إلا إن هناك دليلاً على وجود وعي عام بسورية ككيان، وعلى وجود ولاءات محلية قوية، تحولت أحياناً إلى وطنية سورية. لكن الوتيرة السريعة للأحداث كانت هي السائدة. فخلال فترة تقلّ عن ثلاث سنوات، بدءاً من سنة ١٩١٧، جرت أحداث خارج فلسطين، وسادت ظروف خارجة عن سيطرة الفلسطينيين، الأمر الذي دفعهم، تكراراً، إلى مواجهة المسائل الجوهرية للهوية. ولذا، يناقش الخالدي أن الاستجابة الفلسطينية الخاصة لهذه المسألة كانت ستظهر في النهاية بصرف النظر عن الصهيونية، وأنها كانت ستتطور إلى شعور مستقل بالهوية الفلسطينية، وأنها ستتطور في نهاية المطاف،

جغرافياً، إلى قومية على أساس الدولة – الأمة. فهذا هو منطق أي كيان آخر في العالم العربي المشرقي ضمن الحدود التي رسمتها القوى الإمبريالية من دون استثناء.

وفي ما يقارب الادعاء بوجود الأمة قبل القومية (تصنيف أجراه الباحث الاجتماعي الإسرائيلي أوري رام عن الصهيونية)، يعود الخالدي إلى حدث وقع في القرن الثامن عشر، كي يبرز بدايات ما يعتبره انتماء إلى مكان ما، بدايات ما يعتبره انتماء إلى مكان ما، ومدخلاً إلى الوعي الوطني الأولي، الذي يعتقد الخالدي أنه سيتبلور في القرنين التاسع عشر والعشرين. ففي سنة ١٧٠١، وبمناسبة زيارة مقترحة يقوم بها القنصل الفرنسي في صيدا للقدس (وهو حدث جديد من نوعه لم يسبق للسلطات العثمانية أن سمحت بمثله، كما يخبرنا)، قامت مجموعة من السكان المحليين، تمثل الزعماء المحليين، مع ممثلي العائلات الأساسية في المدن، وفقراء مدينة القدس، بالتجمع في الحرَم احتجاجاً على الزيارة، ووقّعوا عريضة موجّهة إلى السلطان العثماني، طالبوا فيها بإلغاء تصريح الزيارة. والخالدي يحلّل هذا الحدث دليلاً على الشعور بأن فلسطين مكان خاص ومقدس في وعي سكانها.

ويرى الخالدي، في وصفه التحولات التي طالت الهوية في العقود الأولى من القرن العشرين، أن العثمانية التي يعتقد أنها كانت المحور المركزي للهوية خلال الأعوام الطويلة من الحكم العثماني، انتقلت من كونها أحد المصادر الأساسية للانتماء بالنسبة إلى الفلسطينيين، إلى عدم وجود أثر لها إطلاقاً فيما بعد. لكنه لم يقدّم تفسيراً مقنعاً لكيفية هذا الانتقال وسببه. وفي جزء لاحق من كتابه، يرى الخالدي أن التتريك الذي اعتبرته المؤلّفات الوطنية العربية، تكراراً، أحد الأسباب الرئيسية لعدم رضى العرب خلال الأعوام الأخيرة من الحكم العثماني، تم إدراكه، في الواقع، بعد انقضاء الأمر، في الأعوام التي تلت الحرب العالمية الأولى. ثم يكتب الخالدي: "إن إعادة كتابة التاريخ العربي في أعوام ما بين الحربين، كي يلائم هذه الرواية الجديدة للأحداث، أمر آسر." لكنه لم يشرح لماذا وكيف حدث ذلك، ولا ما يعنيه ذلك بالنسبة إلى الهوية المدرَكة لسكان المشرق العربي عامة، أو لسكان فلسطين خاصة.

وتجدر الإشارة إلى أنه في حين يبدو المؤلّف مدركاً تماماً أن تفسيره يقوم على أساس أصوات النخبة الملتزمة تحقيق مصالح تلك النخبة، وأن المواد التاريخية التي يختارها تعكس خطاباً تنتجه النخبة، إلاّ إنه لا يبدو أنه يشعر بالحاجة إلى التحقق من الكيفية التي يعتمدها من لا تسجِّل الوثائق التاريخية أصواتهم، في التفكير في أنفسهم على صعيد الهوية الذاتية، وأين يكمن ولاؤهم. ومن المفترض أن الفلاحين العرب،

الذين يشكّلون الأكثرية الساحقة من أهالي فلسطين، والذين تسود بينهم الاعتبارات الدينية والعشائرية والعائلية والرعوية، لم يتأثروا إلا قليلاً بالحداثة. وفضلاً عن ذلك، فصلت هوة عميقة هؤلاء الفلاحين عن النخبة الحديثة النشوء وشبه العلمانية، سواء تلك التي في إستنبول أو في دمشق أو في بيروت أو في القدس (وخصوصاً بعد قيام التشكيلات البيروقراطية للانتداب)، وهي النخبة التي كانت على اتصال أوثق بالتيارات الفكرية والسياسية الحديثة. ولذا، من الضروري الإشارة إلى أن التركيز على الصحافة العربية، وعلى المناظرات التي تحملها صفحاتها، يجب أن يتخذ حجمه الملائم. فمن الضروري أن نعرف من قم قرّاء تلك الصحف آنذاك، وعدد هؤلاء القراء، بالإضافة إلى موضوع ملكية تلك الصحف، باعتبارها أمراً كبير الأهمية طبعاً. وهذه الاعتبارات مهمة لسببين. فكما يخبرنا الخالدي نفسه، لا توجد في أية مقالة، في الصحف الكثيرة التي راجعها، دعوة إلى المقاومة المسلّحة ضد المستعمرين اليهود (وأقل كثيراً ضد البريطانيين). كما أن ليس هناك أي نقد لعلاقات الملكية الجديدة ذات الأصل الأوروبي، التي سهّلت انتقال الأراضي من الملكية العربية إلى الملكية اليهودية. وتغيب عن رواية الخالدي نفسه، بصورة ساطعة، أية محاولة لربط تشكيل الهوية الفلسطينية بالكفاح ضد الانتداب البريطاني نفسه. فالصهيونية، لا الإمبريالية البريطانية، هي التي تُعتبر العدو الأساسي في نظره. والتاريخ الذي يرويه الخالدي هو تاريخ مكتوب بمصطلحات النضال كما تطور في الأعوام الخمسين الأخيرة. ولا معنى للتحدث عن العشرينات مثلاً، آخذين في الاعتبار النسبة الفعلية للسكان العرب في مقابل اليهود، ومساحة الأراضي التي سيطر عليها اليهود في البلد آنذاك، كما أن لا معنى لتصوير الصراع بمصطلحات القوميين العرب والصهيونيين. ومن اللافت للاهتمام، طبعاً، أن خطاب النخبة، الذي يورده الخالدي، قد فعل ذلك تماماً، ولم يجد تناقضاً أو تضارب مصالح بين الاهتمامات المنظورة للنخبة وبين استمرار السيطرة البريطانية على البلد.

يوجز الخالدي حجته بشأن تشكّل الهوية الفلسطينية، بعرض أربع مراحل، بدءاً من فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، حين كانت فكرة الهوية الفلسطينية محصورة في أوساط ضيقة، هي أوساط المتعلمين في المدن، وانتهاءً بأحداث سنة ١٩٤٨. فقد كانت النكبة نفسها حجر الزاوية في تشكّل الهوية. وبحسب تعبير المؤلف، أظهرت النكبة أنها عامل كبير من عوامل المساواة، ومصدر لتجربة عامة مشتركة، وخصوصاً بالنسبة إلى الفلسطينيين الذين طُردوا أو أُجبروا على النزوح. ويلاحظ الخالدي أن

الفلسطينيين الموجودين خارج فلسطين هم الذين رفعوا راية الوطنية الفلسطينية التي سقطت بعد سنة ١٩٤٨، وأعادوا بناء الحركة الوطنية. لكنه، ويا للتناقض، بقي عنيداً في رفضه التأكيد ان الهوية الفلسطينية ظهرت أول مرة في الستينات، وتحديداً خارج فلسطين، في مخيمات اللاجئين في لبنان وسورية والأردن، فضلاً عن بقية تجمُّعات الشتات الفلسطيني الأبعد في الخليج. أمّا في الوقت الحاضر، فإن عملية السلام الجارية حالياً، واتفاق واشنطن سنة ١٩٩٣، جعلاه يعتقد أن الهوية الفلسطينية أصبحت راسخة. ويلاحظ الخالدي أن هناك إعادة تمركز للمجتمع الفلسطيني، تجري بالتزامن مع إعادة تعريف للهوية. فسكان الضفة الغربية وغزة، اللتين كانت أولاهما قد أُلحقت رسمياً بالأردن سنة ١٩٤٨، من دون أن يبدي سكانها أية مقاومة ظاهرة لمصيرهم الجديد، وظلوا، لفترة طويلة، على هامش النضال السياسي والعسكري الدائر، هم اليوم في صلب عملية منح الهوية الفلسطينية مضمونها. لكن هذا المضمون غير واضح إلى الآن، كما لم يتضح ما يقدّمه إلى الفلسطينيين خارج الأراضي المحتلة، الذين يجدون أنفسهم الآن فلسطينيين غير معترف بهم، نتيجة الاتفاقات التي تمّ التوصل إليها مع إسرائيل.

**موسى البديري**
مركز الدراسات الإقليمية
جامعة القدس، القدس

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf